

فصل في اسمه تعالى «القيوم»

oboeikandi.com

فصل

في اسمه تعالى «القيوم»

وقد قرأ طائفة «القيَام» و«القيَم»، وكلها مبالغات في القائم وزيادة^(١). قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(٢)، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(٣). فهو قائمٌ بالقسط وهو العدل، وقائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، وقيامه بالقسط على كلِّ نفسٍ يستلزم قدرته، فدلَّ هذا الاسم على أنه قادر وأنه عادل.

وسنبيّن أنّ عدله يستلزم الإحسان، وأن كلَّ ما يفعله فهو إحسانٌ للعبادِ ونعمةٌ عليهم. ولهذا يقول^(٤) عقيب ما يعدّده من النعم على العباد: ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١١٢)، والآؤه هي نعمه، وهي متضمنةٌ لقدرته ومشيئته، كما هي مستلزمةٌ لرحمته وحكمته.

وأيضاً فلفظ «القيام» يقتضي شيئين: القوة والثبات والاستقرار، ويقتضي العدل والاستقامة، فالقائم ضدّ الواقع، كما أنه ضدّ الزائل،

(١) انظر تفسير الطبري (٣/ ١٠٩-١١٠)، ففيه ذكر هذه القراءات وبيان أن معناها متقارب.

(٢) سورة آل عمران: ١٨.

(٣) سورة الرعد: ٣٣.

(٤) في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة.

والمستقيم ضدّ المعوجّ المنحرف، كما قال النبي ﷺ^(١): «ما من قلبٍ من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يُقيمه أقامه، وإن شاء أن يُزيغه أزاغه». ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾^(٢)، وقال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾^(٣).

ومنه تقويم السَّهْم والصفّ، وهو تعديله، وكان النبي ﷺ يقول: «أقيموا صُفُوفَكُمْ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ»^(٤). وكان يُقَوِّمُ الصَّفَّ كما يُقَوِّمُ القِدْحُ^(٥).

ومنه الصراط المستقيم والاستقامة، وهذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾^(٦) من طريقة أهل التوراة. وما يَهْدِي إليه القرآن أقومٌ مما يهدي إليه الكتاب الذي [قبله]، وإن كان ذلك يهدي إلى الصراطِ المستقيم، لكن القرآن يهدي للتي هي أقوم. ولهذا ذكر هذا بعد قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(٧)، ثم قال: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢) وابن ماجه (١٩٩) عن النّوأس بن سمعان.، وله شاهد من حديث أم سلمة أخرجه الترمذي (٣٥٢٢) وقال: حديث حسن.

(٢) سورة آل عمران: ٨.

(٣) سورة الصف: ٥.

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٣) ومسلم (٤٣٣) عن أنس بن مالك.

(٥) كما في حديث النعمان بن بشير الذي أخرجه مسلم (٤٣٦).

(٦) سورة الإسراء: ٩.

(٧) سورة الإسراء: ٢.

ولمّا كَانَ الْقِيَامُ بِالْأُمُورِ بِطَرِيقَةِ الْقُرْآنِ يَقْتَضِي شَيْئَيْنِ: الْقُوَّةَ وَالثَّبَاتَ، مَعَ الْعَدْلِ وَالْإِسْتِقَامَةِ، جَاءَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^(١)، وَ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾^(٣) يَقْتَضِي أَنَّهُ يَأْتِي بِهَا تَامَّةً مُسْتَقِيمَةً، فَإِنَّ الشَّاهِدَ قَدْ يَضَعُ عَنْ أَدَائِهَا وَقَدْ يُحَرِّفُهَا، فَإِذَا أَقَامَهَا كَانَ ذَلِكَ لِقُوَّتِهِ وَإِسْتِقَامَتِهِ.

وَكذَلِكَ إِقَامُ الصَّلَاةِ يَقْتَضِي إِدَامَتَهَا وَالْمَحَافَظَةَ عَلَيْهَا بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَأَنْ يَأْتِيَ بِهَا مُسْتَقِيمَةً مُعْتَدَلَةً. وَلَمَّا كَانَتْ صَلَاةُ الْخَوْفِ فِيهَا نَقْصٌ لِأَجْلِ الْجِهَادِ قَالَ: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٤)، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَصَلِّي وَلَا يَقِيمُ الصَّلَاةَ لِنَقْصِ طَمَأْنِينَتِهَا وَالسَّكِينَةِ فِيهَا، فَلَا تَكُونُ صَلَاتُهُ ثَابِتَةً مُسْتَقَرَّةً، أَوْ لِنَقْصِ خُضُوعِهِ لِلَّهِ وَإِخْلَاصِهِ لَهُ، فَلَا تَكُونُ مُعْتَدَلَةً، فَإِنَّ رَأْسَ الْعَدْلِ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا أَنَّ رَأْسَ الظُّلْمِ هُوَ الشَّرْكُ، إِذْ كَانَ الظُّلْمُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَلَا أَظْلَمَ مِمَّنْ وَضَعَ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَعَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ، فَعِبَادَةُ اللَّهِ أَصْلُ الْعَدْلِ وَالْإِسْتِقَامَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٥)، فَأَمَرَ بِإِقَامَةِ الْوَجْهِ لَهُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ،

(١) سورة النساء: ١٣٥.

(٢) سورة المائدة: ٨.

(٣) سورة الطلاق: ٢.

(٤) سورة النساء: ١٠٣.

(٥) سورة الأعراف: ٢٩.

وهو التوحيد وتوجيه الوجه إليه سبحانه، فإن توجيهه إلى غيره زَيْغٌ. وبالإخلاص يكون العبد قائماً، وبالشرك زائغاً، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ﴾^(٢). وإقامته: توجيهه إلى الله وحده، وهو أيضاً إسلامه، فإن إسلام الوجه لله يقتضي إخضاعه له وإخلاصه له.

وفي القرآن إقامة الوجه، وفيه توجيهه لله وإسلامه لله، وتوجيهه وإسلامه هو إقامته، وهو ضدُّ إزاعته. فلما كانت الصلاة تضمنت هذا وهذا، وهو عبادته وحده وإخلاص الدين له وتوجيه الوجه إليه، كما فيها هذا العدل، فلا بدَّ من هذا ولا بدَّ من الطمأنينة فيها، وهي إنما تكون مَقَامَةً بهذا، وهذا هو الخضوع، فإن الخشوع يجمع معنيين: أحدهما الذلُّ والخضوع والتواضع، والثاني السكون والثبات. ومنه قوله تعالى: ﴿خَشَعَتِ أَبْصَارُهُمْ تَرَهِفَهُمْ ذَلَّةٌ﴾^(٣)، وقوله: ﴿خَشِعِينَكَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَكَ مِنْ طَرْفِ خَفِيٍّ﴾^(٤)، وهو الانخفاض والسكون. ومنه خشوع الأرض، وهو سكونها وانخفاضها، فإذا أُنْزِلَ عليها الماء اهتزت بدل السكون، وربت بدل الانخفاض.

وقال: ﴿كُونُوا قَوْمِينَ بِالْأَيْمَانِ﴾^(٥)، ﴿قَوْمِينَ لِلَّهِ﴾^(٦). و«القوام»

(١) سورة الروم: ٣٠.

(٢) سورة الروم: ٤٣.

(٣) سورة القلم: ٤٣.

(٤) سورة الشورى: ٤٥.

(٥) سورة النساء: ١٣٥.

(٦) سورة المائدة: ٨.

هو الْقِيَامُ، فَإِنَّ «قِيَامًا» و«قِيَوْمًا» أصله قِيَوْمًا وَقِيَوْمًا، ولكن اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأدغمت إحداهما بالأخرى، لأنّ الياء أخفُّ من الواو. قال الفراء^(١): وأهل الحجاز يصرفون الفَعَال إلى الفَيْعَال، ويقولون للصَوَاغ: صَيَّاعٌ.

قلتُ: هذا إذا أرادوا الصفة، وهي ثباتُ المعنى للموصوف، عدلوا عن «فَعَال» إلى «فَيْعَال» كما في سائر الصفات المعدولة، فإنّ من هذا قلبَ المضعف حرف عينه، والحروف المختلفة أبلغ من حرف واحدٍ مشدّد. وأما إذا أرادوا الفعل فهو كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، ولم يقل «قِيَامِينَ».

وقد قرأ طائفة من السلف: «الحيُّ القيَّام»، ولم يقرأ أحدٌ قطُّ: «كونوا قِيَامِينَ بالقسط»، لأن المقصود أمرهم أن يقوموا بالقسط، والأمر طلبٌ فعلٍ يُحدثه المأمور. بخلاف الخبر عن الموصوف بأنّه صَيَّاعٌ، فإنه خبرٌ عن صفةٍ ثابتةٍ له. ولهذا جاء في أسماء الله «القيَّام»، ولم يَجِءْ «القوَّام»، قرأ عمر بن الخطاب وغير واحدٍ «القيَّام»، وقرأ طائفة «القيِّم». قال ابن الأنباري^(٢): هي كذلك في مصحف ابن مسعود. ومن دعاء النبي ﷺ في الصحيحين^(٣): «ولك الحمد، أنتَ قيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن».

(١) «معاني القرآن» (١/ ١٩٠).

(٢) «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ١٨٦).

(٣) البخاري (١١٢٠) ومواضع أخرى) ومسلم (٧٦٩) عن ابن عباس.

ولما كان لفظ «القيام» يتضمن القوة والثبات، وقد يتضمن مع قيام الشيء بنفسه إقامته لغيره، حُصِّنَ لفظ «القوم» بالرجال دون النساء، فلا تُسَمَّى النساءُ بانفرادهنَّ «قومًا»، ولكن قد يدخلن في اللفظ تبعًا. قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ... وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ﴾^(١)، فإنه قال: ﴿الرِّجَالُ قَوْمُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(٢). ومنه قول الناظم:

وَمَا أَدْرِي وَظَنِّي كُلُّ ظَنٍَّّ أَقَوْمٌ آلٌ حِصْنٍ أُمَّ نِسَاءٍ^(٣)

ولما كان «القيام» يقتضي الثبات - وهو ضدُّ الزوال - قال: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾^(٤)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(٥). وهو يقتضي الاعتدال مع الثبات، وهو خلقهما معتدلتين كما قال: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٦)، وقال: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾^(٧). والعدل لازم في كلِّ مخلوق، ومأمورٌ به كلُّ أحدٍ، كما قد بسطَ في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾^(٨).

ولما في لفظ «القيام» من العدل سُمِّيَ ما يُساوي المبيعَ: قيمةً

(١) سورة الحجرات: ١١.

(٢) سورة النساء: ٣٤.

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه (ص ١٣٦) برواية مختلفة.

(٤) سورة الروم: ٢٥.

(٥) سورة فاطر: ٤١.

(٦) سورة البقرة: ٢٩.

(٧) سورة الملك: ٣.

(٨) سورة الأعلى: ٢. وانظر تفسير الآية في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٢٧ - ١٣٥).

عَدْلٍ، قال النبي ﷺ^(١): «مَنْ أَعْتَقَ شِرْكَاً لَهُ فِي عَبْدٍ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الْمَالِ مَا يَبْلُغُ ثَمَنَ الْعَبْدِ، قُوِّمَ عَلَيْهِ قِيَمَةُ عَدْلٍ لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ، فَأُعْطِيَ شِرْكَاءُوهُ وَعُتِقَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ».

وكذلك يُسَمَّى تعديلُ الحسابِ تقويماً، فإذا جُمِعَتْ حَرَكَةُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرَهُمَا السَّرِيعَةُ وَالْبَطِيئَةُ، وَأَحَدٌ يُعَدَّلُ ذَلِكَ، سُمِّيَ ذَلِكَ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً، وَيُسَمَّى مَا يُكْتَبُ فِيهِ ذَلِكَ تَقْوِيماً، كَمَا يُصْنَعُ بِالْمَكَانِ إِذَا أَخَذَ مُغَلُّهُ فِي إِقْبَالِهِ وَإِدْبَارِهِ، فَإِنَّهُ يَوْجَدُ مَعْدَلُ ذَلِكَ، وَيُقَوِّمُ بِاعْتِبَارِ ذَلِكَ.

ويقال: قامتِ السوقُ، إِذَا حَصَلَ فِيهَا التَّبَايُعُ بِالْتَرَاضِيِّ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعَدْلِ، وَلَا بَدَأَ أَنْ يَبْقَى ذَلِكَ زَمَناً، ففِي قِيَامِ السُّوقِ مَعْنَى الْعَدْلِ وَالثَّبَاتِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَقَامَتْ سُوقُهَا عَشْرِينَ عَامًا

ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾^(٢)، أَي يَقُومُ عَلَيْهِ كَمَا يَقُومُ الْقِيَمُ عَلَى مَا يَقُومُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ جَالِسًا مَعَهُ. وَالْإِقَامَةُ أَبْلَغُ مِنَ الْقِيَامِ، فَإِنَّ فِيهَا زِيَادَةَ الْهَمْزَةَ وَالزِّيَادَةَ لَزِيَادَةِ الْمَعْنَى، وَهِيَ تَقْتَضِي مِنَ الثَّبَاتِ وَالِدَوَامِ أَبْلَغَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْقِيَامِ. وَالْمُقَامُ بِالْمَكَانِ هِيَ السُّكْنَى فِيهِ وَاسْتِيْطَانُهُ، وَالْمَقِيمُ خِلَافَ الْمَسَافِرِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥٢١-٢٥٢٥ وَمَوَاضِعُ أُخْرَى) وَمُسْلِمٌ (١٥٠١) وَبَعْدَ رَقْمِ

(١٦٦٧) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

(٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٧٥.

ولما كان اسمه «القيوم» يتناول هذا وهذا، وهو قيوم السماوات والأرض ومقيم كل مخلوق من الأعيان والصفات، دل ذلك على أن كل مخلوق له نصيب من القيام، فهو قائم بالقيم الذي أقامه، كما أن له قدرًا بالخلق، فإن اسمه «الخالق» يقتضي الإبداع والتقدير، فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدْرِ﴾ (٤٩) (١)، وقال: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٢) (٢).

وإذا كان لكل شيء مخلوق قيامًا وقدرًا، دل ذلك على فساد قول من أثبت الجوهر الفرد، ومن قال: العرض لا يبقى زمانين. فإن الذين يقولون بالجوهر الفرد يثبتون شيئًا لا يتميز يمينه عن يساره، ولا يعرف بالحس، وهو ممتنع وجوده، فإن وجود ما لا يتميز منه جانب عن جانب ممتنع، وإنما يفرضونه في الذهن. وعلى قولهم لا قدر له، والله تعالى قد جعل لكل شيء قدرًا، فما لا قدر له لم يخلق، بل هو ممتنع.

وما يفرضه أهل الهندسة من نقطة مجردة وخط مجرد وسطح مجرد، هي أمور مقدرّة في الأذهان واللسان، لا توجد مجردة في الخارج، بل لا توجد إلا نقطة معينة مثل نقطة الماء والحبر ونحو ذلك مما يتميز منه جانب عن جانب، لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (٢) (٣)، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ (٢) (٣).

(١) سورة القمر: ٤٩.

(٢) سورة الطلاق: ٣.

(٣) سورة الفرقان: ٢.

والله سبحانه خالق الموجودات العينية ومُعلِّم الصور الذهنية، وأول ما نزل: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (١).

ومن الناس من يقول: المعدوم شيء ثابت في الخارج، وليس بمخلوق، بل ثبوته قديم. وآخرون يقولون: الماهيات غير مجعولة. وهؤلاء وهؤلاء اشتبه عليهم ما في الأذهان بما في الأعيان، فأخرجوا بعض مخلوقاته عن أن تكون مخلوقة له.

وتحقيق الأمر أن كل ما يُقدَّر فيما أن يكون ثابتاً في الأعيان والموجود الخارج، أو في العلم والوجود الذهني، وهو سبحانه خالق هذا ومُعلِّم هذا، فلا يخرجُ شيءٌ أصلاً عن تخليقه وتعليمه، بل هو الذي خلق فسوَّى، وقَدَّرَ فهَدَى، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ (٢). فهو خالق كل شيء وقَيُّومُه، وكلُّ ما أقامه القَيُّومُ فله قيام، والحركة وإن وُجدت شيئاً فشيئاً فلا بدَّ لها من لُبِّثٍ، لا يُتصوَّر أن تُعدَمَ قبل أن تلبثَ زمناً من الأزمان، وقَيُّومُ السماوات هو الخالق الذي يُبدعه ويجعل له ذلك القدر، فجعل للأعيان قدراً، وللحركات قدراً، ولزمانها قدراً، وبعض ذلك يُطابق بعضاً، فإن الزمان مُساوٍ للحركة، والحركة هي مبدأ الأحداث. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (٣)،

(١) سورة العلق: ١-٥.

(٢) سورة الشمس: ٧-٨.

(٣) سورة الحج: ٦١.

والإيلاج هو بسبب الحركة الحولية، كما أن اختلاف الليل والنهار وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل هو بسبب الحركة اليومية.

وهو سبحانه ﴿فَالِقُ الْخَيْبِ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾^(١)، وهو ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾^(٢). فذكر أنه فالقُ الإصباح بعد ذكره فلقَ الحب والنوى، فإنه بسبب فلقه الإصباح وجعل الليل والنهار يَتِمُّ ما يخلقه وينمو ويحصلُ مصلحته، ثم ذلك يحصل بتسخير الشمس والقمر وجعلهما بحسابٍ على وفقِ العدلِ في الحكمة، لا يتقدم شيء على وقته ولا يتأخر شيء عن أجله، وهو سبحانه يَسوقُ المقاديرَ إلى المواقيتِ.

واستحالةُ الأجسام بعضها إلى بعضٍ معلومٌ بالمشاهدة، وهو مما تطابقَ عليه أهلُ الطبائع والشرائع وأهل العادات، والأطباء يعرفون استحالة الأجسام بعضها إلى بعض، وغيرهم. وكذلك الفقهاء تكلموا في استحالة الطاهر إلى النجس، واستحالة النجس إلى الطاهر، وفي الماء والمائع إذا خالطته النجاسة هل يستحيل أم لا؟

والذين أنكروا ذلك وقالوا بالجواهر الفرد زعموا أن كلَّ ما شهدَ العبادُ أنَّ الله يخلقه من سحابٍ ونباتٍ ومطرٍ وإنسانٍ وحيوانٍ، فإنَّ الله - فيما زعموا - [لَمْ] يُبدعْ تلك الأعيانَ والجواهرَ القائمةَ بأنفسها،

(١) سورة الأنعام: ٩٥.

(٢) سورة الأنعام: ٩٦.

وإنما يُحَدِّثُ أعراضاً، وهو تركيبُ الجواهرِ بعضها مع بعض، ثم زعموا أن الجواهر إنما يُعَلِّمُ أنه خلقها بالاستدلال، وهو أنها لا تخلو من الأعراضِ الحادثة، وما لا يخلو إذن فهو حادث. وعلى هذا اعتمدوا في خَلْقِ الله للعالم وفي إثباتِ الصانع، وجعلوا ذلك أصلَ دين المسلمين، ثمَّ التزموا لوازمَ من إنكار الصفات أو بعضها، ومن إنكارِ الرؤية، والقول بخلق القرآن، وغير ذلك.

فتسلَّطَ عليهم السلف والأئمةُ وعلماءُ السنة بالتبديع والتكفير مع التجهيل والتضليل، وتسلَّطَ عليهم طوائفُ العقلاء الذين فهموا كلامهم بالتجهيل والتضليل، وخالفوا الحسَّ والعقلَ والشرعَ الذي هو خير الصادق، وهذه الثلاثة هي مدارك العلم عندهم وعند غيرهم، كما ذكروا ذلك في أول كتبهم.

أما مخالفة الحسِّ فقولهم: إنَّ الله لم يُبدع عين الإنسان والحيوان، ولا عينَ الثمار والمطر والسحاب، وإنما أحدثَ تأليفاً. وعلى قولهم تلك الجواهرُ التي كانت في بني آدمَ باقيةً بأعيانها في كلِّ واحدٍ من ولده، ومعلومٌ أنَّ هذا غير ممكن، فإنَّ مَنِّي الرجل الواحد لا يحتمل أن ينقسمَ أقساماً بعددِ كلِّ مَنْ وُلِدَ من الآدميين. وكذلك عندهم أن كلَّ بني الآدميين فيه جزءٌ من بني نوح، لأنه عندهم لم يُبدع اللهُ عيناً، بل نفسُ مَنِّي الأبِ فيه الجواهر، ركَّبها تركيباً آخر، وضمَّ إليها جواهرَ آخر.

وأما مخالفة العقل فإثباتُ الجوهر الفرد إثباتُ شيء موجودٍ لا يتميز منه شيء عن شيء، فإذا وُضِعَ جوهرٌ بين جوهرين، فإن كان

الذي يُماسُّ هذا الجانب فقد التقى الجوهران، وإن كان غيره فقد ثبت الانقسام.

وأيضاً فنحنُ نشاهد الهواءَ يستحيلُ ماءً إذا وُضِعَ في الزجاج، ونحوه ثلجٌ صار عليه ماءٌ يَقْطُرُ، ومعلومٌ أن الثلجَ لم يَتَّقِبِ الزُّجَاجَ، بل الهواءَ الذي أحاطَ به بَرَدَ فاستحالَ ماءً، كما يُحِيلُ اللهُ سحَابًا وماءً. هذا مشهود، يكون الإنسانُ على حَيْدٍ، فيرى البُخَارَ قد صَعِدَ من البحارِ فانعقدَ سحَابًا، وينظر تحته وهو أعلى منه في الشمس على رأسِ الجبل. وكذلك الهواءُ يستحيلُ نارًا، فإذا قَرَّبَ ذُبَابَةَ المصباحِ إلى النارِ أوقدَ، مع أنه لم يخرج من تلك النارِ شيءٌ، ولكن الهواءَ المحيطَ بالذُّبَابَةِ استحالَ نارًا لَمَّا سَخُنَ سُخُونَةً شديدةً. فالهواءُ يَبْرُدُ فيستحيلُ ماءً، وَيَسْخُنُ فيستحيلُ نارًا.

وكذلك ما يَفْدَحُ النارُ، قال تعالى: ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾^(١)، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾^(٢) الآيات، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾^(٣). والعرب يقولون: «في كلِّ شجرٍ نارٌ، واستمجد المرخُ والعفار»^(٤)، يأخذون عودينِ أخضرينِ يَحْكُونُ أحدهما بالآخر حتى يَسْخُنَ، فإن الحركة

(١) سورة العاديات: ٢.

(٢) سورة الواقعة: ٧١.

(٣) سورة يس: ٨٠.

(٤) انظر أمثال أبي عبيد (ص ١٣٦) و«جمهرة الأمثال» (١/ ١٧٣) و«فصل المقال» (ص ١٧١) وغيرها من كتب الأمثال.

تُوجِبُ السخونة، والسخونةُ تحصلُ بالحركة وبالنار وبالشُعاع، فإذا سخنَ انقَدَحَ منه نارٌ باستحالةِ بعض تلك الأجزاء ناراً، وما كان هناك قبلَ هذا نارٌ، بل سبحانه يُحدِثُ النارَ عند باقيةِ بعينها، وهي جوهر يقوم بها الصورة كما يقوله من يقول ذلك من المتفلسفة، فقلوه خطأ، بل المادة استحالت فخلقَ منها شيءٌ آخر، والأولى هلكتُ وأعدمها الله على هذا الوجه، كما أوجدَ ما خلقَ منها على هذا الوجه. وقد بسط الكلام على هذا في موضع آخر.

والمقصود الكلامُ على اسمه «القيوم»، والتنبيهُ على بعض ما دلَّ عليه من المعارف والعلوم، فهو سبحانه قَيُّومُ السماوات والأرض، لو أخذته سنةٌ أو نومٌ لهلكتِ السماوات والأرض. والمخلوقُ ليس له من نفسه شيء، بل الربُّ أبدعَ ذاته، فلا قوامَ لذاته بدون الربِّ، والمخلوق بذاته فقيرٌ إلى خالقه، كما أن الخالقَ بذاته غنيٌّ عن المخلوق، فهو الأجلُّ الصمدُ، والمخلوقُ لا يكون إلا فقيراً إليه، والخالقُ لا يكون إلا غنياً عن المخلوق، وغناه من لوازم ذاته، كما أن فقرَ المخلوقِ إلى خالقه من لوازم ذاته. وهذا المعنى مما يتعلق بقول الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ تعلقاً قوياً.

والناسُ يشهدون إحدائه لمخلوقاتٍ كثيرة وإفناءه لمخلوقاتٍ كثيرة، وهو سبحانه يُحدِثُ ما يُحدِثُه من إرادةٍ يُحيلُها ويُعِدُّها إلى شيءٍ آخر، ويُفني ما يُفنيه بإحاليته إلى شيءٍ آخر، كما يُفني الميتَ بأن يصيرَ تراباً.

وعلى هذا تترتبُ مسائل المعاد، فإن الكلام على النشأة الثانية فرعٌ عن النشأة الأولى، فمن لم يتصور الأولى فكيف يعلم الثانية؟

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (١). فهؤلاء غلظوا في معرفة النشأة الأولى، فكانوا في معرفة النشأة الثانية أغلظ، كما قد ذُكر هذا في غير هذا الموضع.

وكان غلظهم لأنهم ظنوا أن الله يُفني العالم كله ولا يبقى موجوداً إلا الله، كما قالوا: إنه لم يكن موجوداً إلا هو، فقطعوا بعدم كل ما سوى الله. ثم اختلفوا، فقال الجهم: إنه يُفني العالم كله، وإن أعاده فإنه يُفني الجنة والنار، فلا يبقى جنة ولا نار، لأن ذلك يستلزم دوام الحوادث، وذلك عند الجهم ممتنعٌ بنهاية وبداية في الماضي والمستقبل. وقال الأكثرون منهم: بل هو إذا أعدم العالم بالكلية فإنه يُعيده ولا يُفنيه ثانياً، بل الجنة باقية أبداً، وفي النار قولان (٢).

وهؤلاء قطعوا بإفناء العالم، وللتُّظار فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: القطع بإفنائه.

والثاني: التوقف في ذلك، وأنه جائز، لكن لا يُقطع بوجوده ولا عدمه.

والثالث: القطع بأنه لا يُفنيه. وهذا هو الصحيح، والقرآن يدلُّ على أن العالم يستحيل من حالٍ إلى حالٍ، فتنشق السماء فتصير

(١) سورة الواقعة: ٥٨-٦٢.

(٢) انظر «قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار».

وردة كالدّهان^(١)، وتُسَيَّرُ الجبال^(٢) وتُسَسُّ بَسًّا^(٣)، وتُدَكُّ الأرض^(٤)،
وتُسَجَّرُ البحار^(٥)، وتتكدرُ النجوم^(٦) وتتناثر^(٧)، وغير ذلك مما
أخبر الله به في القرآن، لم يُخبر بأنه يُعَدِّمُ كلَّ شيءٍ، بل أخباره
المستفيضةُ بأنه لا يُعَدِّمُ الموجوداتِ .

فقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٨) أخبر فيه بفناء مَنْ على الأرض
فقط، والفناء يُرادُ به الموتُ ولا يُرادُ به عَدَمُ ذواتِهِمْ، فإنَّ الناسَ إذا
ماتوا صارت أرواحُهُمْ إلى حيثُ شاءَ اللهُ من نعيمٍ وعذابٍ، وأبدانُهُمْ
في القبورِ وغيرها، منها البالي وهو الأكثرُ، ومنها ما لا يَبْلَى كأبدانِ
الأنبياء^(٩)، والذي يَبْلَى يَبْقَى منه عَجَبُ الذَّنْبِ، منه بَدَأَ الخَلْقُ ومنه
يُرَكَّبُ^(١٠). فهؤلاء لما قالوا: إِنَّهُ يُفْنِي جميعَ العالمِ وإنَّ ذلك واقعٌ
وممكنٌ، احتاجوا إلى تلك الأقوالِ الفاسدةِ، وإلَّا فالفناء الذي أخبرَ
به القرآنُ هو الفناء المشهودُ بالاستحالةِ إلى مادةٍ، كما كان الإحداثُ

(١) كما في سورة الرحمن: ٣٧ .

(٢) كما في سورة النبأ: ٢٠ .

(٣) كما في سورة الواقعة: ٥-٦ .

(٤) كما في سورة الفجر: ٢١ .

(٥) كما في سورة التكوير: ٦ .

(٦) كما في سورة التكوير: ٢ .

(٧) كما في سورة الانفطار: ٢ .

(٨) سورة الرحمن: ٢٦ .

(٩) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٤ / ٨) وأبو داود (١٠٤٧، ١٥٣١)

والنسائي (٣ / ٩١) وابن ماجه (١٠٨٥، ١٦٣٦) عن أوس بن أوس .

(١٠) كما في حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم (٢٩٥٥) .

بالحق من مادة .

فاسمه سبحانه «القيوم» يقتضي الدوام والثبات والقوة، ويقتضي الاعتدال والاستقامة، وقد وصف نفسه بأنه قائم بالقسط^(١)، وأنه على صراط مستقيم^(٢). ومنه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٣)، ومنه قامة الإنسان وهو اعتداله، ومنه قيام الإنسان، فإنه يتضمن الاعتدال مع كمال وطمأنينة، ومنه قول الشاعر^(٤):

أَقِيمِي أُمَّ زَنْبَاعِ أَقِيمِي صُدُورَ الْعَيْسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمِ

فإنه أراد: وجَّهِي صدورَ العيس نحوَ بني تميم. والعيسُ هي الإبل التي تُركبُ ويحملُ عليها، ويقال: الإبلُ العيسُ، جمعُ عيساء.

(١) كما في سورة آل عمران: ١٨ .

(٢) كما في سورة هود: ٥٦ .

(٣) سورة التين: ٤ .

(٤) البيت لأبي جندب الهذلي مطلع قصيدة له في «شرح أشعار الهذليين» (١) / (٣٦٣). قال الأصمعي: وتروى لأبي ذؤيب. وفي «لسان العرب» (شطر) لأبي زنباع الجذامي. والرواية فيهما: أقول لأم زنباع...